

تقديم

أية أضواء كاشفة نلقها على مخيلة محلية تتشابه فيها -تصاعديا- ثقافات مختلفة ترمي إلى إبداع -تنازليا- ثقافة جديدة و بالتالي إلى التأسيس لخطاب جديد و جماليات حديثة تسعى إلى تجاوز الاختلاف؟

يقدم العدد التاسع من مجلة "إنسانيات" إلى القارئ آراء متباينة بالنظر إلى تعدد المناهج و التوجهات النظرية و معالجة المسلمات الرمزية و الأيديولوجية ثم المعطيات حول المرجعيات التاريخية و الجغرافية و الدينية و السيميولوجية كما أنه يشتمل على دراسات تبني في مجملها مخيالا متداخلا للثقافات.

تنوزع هذه الدراسات إلى ثلاثة أقسام الأول حول التاريخ و الممارسات الثقافية في المغرب و الثاني حول المخيال و الأدب و الثالث حول الثقافة و الممارسات السيميولوجية.

رغم أن كل قسم يصدر عن مسعى مرتبط بحقل بحث معين تسهل مقابلة الموضوعات المقترحة و يتيسر النظر في الحدث الثقافي، بل العابر للثقافات: تارة في شموليته و هيئاته و تطوره و تارة أخرى في تركيبته و ديناميته و امتداداته الجدلية. ربما يجب قول المغرب و حكيه بطريقة مغايرة في خطاب "المهمش" الذي استحال إلى خطاب معاكس، و تأويل الأسطوري و السحري و المقدس و الدنيوي و المعيش و الشعري و الجسدي و الإيقنوغرافي (الرسمي) بمساءلة الأدب و الفنون بمختلف أشكالها؟ يستتج عن ذلك أن الثقافة في الممارسات الكلامية ذات النوع الشعبي أو (و) المؤسساتي، تخترق أبحاث هذا العدد. في ظل سياق متعدد اللغات لمجال مثل المغرب، سياق كان حصيلة تاريخية لعملية طويلة ترمي إلى وضع مرفولوجيا ثقافية، ألسنية و خطابية منذ تكوين اللغة البربرية إلى ظهور اللغة الفرنسية و ثقافتها مروراً بمختلف الترسيبات التاريخية (اللغة البونيقية و اللغة اللاتينية و اللغة العربية و اللغة التركية و اللغة الإسبانية)، طرحنا سؤال إدراك الظاهرة الثقافية في مجال عاش -تاريخيا- وضعية احتكاك لغوي مستمر و بالتالي قام على احتكاك دائم بين الثقافات المختلفة.

عندئذ لا يمكن اعتبار الثقافة بناء فكرياً أو إسقاطاً نظرياً، بل ممارسة و معيشاً تاريخياً متأصلاً في مجتمعنا بثرائه و بؤسه، بأمجاده و مآسيه، بانتماءاته و تمزقاته، بجاذبياته و تنافراته، بقطيعاته و استمرارياته.

كان مستوى التدخل أكثر دقة و حذافة حين كانت التأثيرات أقل وضوحا و بالتالي أكثر ديمومة. في هذه الحالة، كيف تقننت عمليات الولوج و التداخل و التهجين الألسني و الخطابي و السيميولوجي في مجال ملتقي خاضع لدورات تاريخية عنيفة و مضطربة؟ و يمكن ملاحظة هذه العناصر في لغة أقرب كرونولوجيا إلى السياق المغربي- أي اللغة الفرنسية- حيث تقدم لنا مقالات الباحثين (أوهيبي و ابن شهيدة و مباركي و كاسول) عناصر تواجد منتظم للظاهرة الثقافية في الأدب الناطق بالفرنسية. تؤكد الباحثة نادية غاسول أوهيبي أن الآداب المغربية المعاصرة -خاصة الجزائرية منها- أي تلك التي ترفض السير على الدروب المعتادة، تفتح فضاءات جديدة حيث الغرض ليس "القول" بل تعبير اللغة الشعرية و تفسيرها. فالنصوص المغربية تتجلى في شكل نسيج من الدلالات المتشابكة -رغم تباين بعضها و تنافر بعضها الآخر و ترمي إلى إدراك آليات سير شبكات الدلالية و هي تحيل على تراثها الثقافي و التاريخي الذي طبعته آثار الشعوب العديدة التي احتلت سواحلها لفترات طويلة. و يشير الباحث مبروك قادة إلى الظروف التي حالت دون معرفة الكتاب باللغة الفرنسية، بالثقافة العربية و لغتها. هذا ما دفع بعض النقاد إلى وضع هؤلاء الأدباء موضع إتهام على الرغم من تعبير أدبهم عن الواقع الجزائري. و يتوصل بعد استعراض للعديد من الآراء النقدية سواء في الجزائر أو بفرنسا إلى أن مقياس اللغة وحده مقياس ضعيف في الحكم على هذا الأدب.

يبرز الباحث فريد بن رمضان العلاقة بين اللغة (اللغات) و المجال و يضعها في أفق تاريخي طويل المدى عن طريق تساؤلات حول ممارسات "إسم العلم" ذي الصبغة الدينية و الصوفية (وثنية، مسيحية، إسلامية) التي تمت بلورتها في طوبونيميا بعض المناطق من الغرب الجزائري و يرى أن بعض التمفصلات التي تميز المخيال و المسارات الثقافية و الثقافية بالمغرب لا يمكن إدراكها إلا في التنوع الألسني (اللغة اللببية القديمة، اللغة البربرية، اللغة البونيقية و اللغة العربية) و في رمزية استعمالات أسماء العلم و في العمليات المتطورة للتهجين الألسني و الدلالي.

فاللغة الإسبانية هي كذلك، مكان من أماكن الذاكرة في تاريخ الجزائر. إنها لغة تشتمل على مفردات عربية و مجموعة من الخصائص الإجتماعية الثقافية العربية الإسلامية تدل على تنقل دائم للأشخاص و الأفكار، و تملك تراثا تاريخيا مشتركا: و هي عناصر تساهم كلها حسب الباحث أحمد أبي عياد في صياغة مفهوم "الهوية المغربية".

غير أن الطريقة التي تبلورت بها الهوية المغربية تم التفكير فيها بأسلوب مغاير من قبل الباحث "مراد بلس" انطلاقا من التساؤل التالي: كيف تأسس الجسم المغربي تاريخيا و كيف تم تمثله الرمزي؟ جسم في أزمة، جسم في مواجهة العالم، جسم لذاته، جسم قصة، جسم

منحي أشكالي.. إنه الجهاز الفيزيولوجي العظيم و هو المدونة العجيبة التي تعيش بالمغرب و خاصة بالجزائر - إنه الأزمة السيميولوجية الوضامية التي ترجع نشأتها إلى القرنين الخامس عشر و السادس عشر.

أما بالنسبة للباحث منصور بن شهيدة، فإنه لا يمكن إدراك المخيال المغربي خارج الكلمة، و تشكل رواية "شرف القبيلة" للكاتب رشيد ميموني مثالا ساطعا، إذ حاولت بعض الدراسات حصر هذا الأخير في نزعة محافظة على مستوى العرض رغم تعلقه الشديد بالحدثة و مقتته للظلامية.

ما هي الموضوعات التي تناولها الأدب النسوي الجزائري الناطق باللغة الفرنسية ؟ تحاول الباحثة عائشة كاسول بناء تاريخ هذا الأدب إنطلاقا من نصوص أدبية نشرت بين 1947 و 1987. يبقى الموضوع الرئيسي لهذا الأدب قضية المرأة و يتلازم مع موضوع تحرير البلاد. فالخطاب "النسوي" لا يساند -إلا نادرا- أطروحة الإندماج. و عند الحديث عن النساء الجزائريات -خاصة في الغرب الجزائري- يحاول الباحث الحاج ملياني إبراز ارتباط ممارسة "الأعراس المزيفة" (فالصو) و حفلات الختان المزيف (فالصو) - لدى شرائح معينة من النساء- و إن كانت هذه الممارسة محدودة أو في طريق الزوال- بسعيهن إلى جلب مساعدات مقنعة (معونة) أو استرجاع ديون سابقة. إنها ممارسة تعمل على صياغة هوية ذات إجتماعية داخل المعايير المتداولة لصورة المرأة أو خارجها.

و ضمن الروايات التي تستند إلى الخيال، يدرس الباحث محمد داود "العجيب" كجانب من الجوانب الأدبية المدرجة في النص الروائي. في هذا الإتجاه الغرائبي و فوق الطبيعي: تتعرض الدراسة لرواية "الحوات و القصر" للروائي الجزائري طاهر و طار بالتحليل فالروائي يدرج أسطورة "البطل-السياسي" في نصه. إن علياً و هو "بطل بدون خوف" يرمز للخير في صراعه مع الشر و لأجل ذلك لا بد له من المرور عبر سبع قرى لتقديم السمكة العجيبة للملك. و تعتبر هذه المبادرة عملا مناقضا للعرف الإجتماعي من قبل السلطة و تؤدي بصاحبه إلى التعرض للعديد من المصائب: لكنها مبادرة تؤسس نظاما جديدا. و تعتبر قصيدة الشاعر محمد العيد آل خليفة "أين ليّلي" خطوة متقدمة على مستوى الرؤية و الوعي و الممارسة الشعرية في الأدب الجزائري المعاصر. و يتجلى ذلك حسب الباحث علي إبراهيم من خلال توظيف الشاعر للزمن الصوفي و التاريخي في طرح القضية الوطنية و الهوية. و إنطلاقا من مفهوم "فك التمركز Décentration" يهتم الباحث بلقاسم مباركي بسلوك تناقفي في صيرورة (ثقافة بور "beur" أبناء المهاجرين) ويسعى من خلال قراءة عدد هام من الأطروحات و التحليل و أعمال الملتقيات، إلى التأكيد على أن الهوية المغربية - كما يراها

المهاجرون المغاربة بفرنسا- كثيرا ما درست من منظور غربي ذي تمركز عرقي في وقت يحمل فيه أدب الهجرة ملامح "مثقفة" ثنائية فهو بذلك مؤهل لتجاوز السياجات الضيقة. و إنطلاقا من الأبعاد الجديدة -كالثقافات الثقافية و الفنية : يوظف الباحث محمد لخضر معقال الرواميز الإيقونوغرافية و التصويرية و تعقيداتها في لوحات الرسام عبد الرحمن عيود عند قراءة العلاقة بين الشرق و الغرب. في السياق ذاته يبرز الباحث محمد عباسة الأصول الشرقية للحب الكورتوازي كما تغنى به الشعراء الأوربيون. فالحروب التي شنها الغرب و الكنيسة على العرب في المشرق و الأندلس لم تمر دون جني ثمارها الثقافية إذ أدت إلى تأثر شعراء أوروبا بالحسب الذي طرقة الشعراء العرب بكل موضوعاته. و إنطلاقا من قصة إسحاق دينسان "المعنونة الورقة البيضاء، تطلق الباحثة فضيلة بن زاوي العنان لخيالها على صفحة بيضاء : قماش من الكتان للمخيال كان ذلك سنة 1995 حيث رفض للكلام و القلم موهبتهما كأداة للمعرفة ليسخرا من قبل الجهل و الظلامية و الإنحطاط و الموت (تشير إلى اغتيال زميلها بن عودة بختي).

فريد بن رمضان

نقله إلى العربية محمد عالم